مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١:١٠-١٤؛ ٢:١-٣)

أنت يا ربُّ في البدءِ أسَّستَ الأرضَ والسمواتُ هي صُنعُ يدَيْك* وهي تزولُ وأنتَ تبقى وكلُّها تَبلى كالثوبِ* وتَطويها كالرِداءِ فتتغيَّرُ وأنتَ أنتَ وسنوكَ لن تَفنى* ولِمَن مِن الملائكةِ قالَ قطُّ اجلِسْ عن يميني حتَّى أجعَلَ أعداءَكَ مَوطِئًا لقدمَيْك* أليسوا جميعُهم أرواحًا خادمةً تُرسَلُ للخدمةِ من أجلِ الذينَ سيَرِثونَ الخلاصَ* فلذلكَ يجبُ علينا أن نُصغيَ إلى ما سمعناهُ إصغاءً أشدَّ لئَلاَّ يَسرِبَ من أذهاننا* فإنَّها إن كانتِ الكلِمَةُ التي نُطِقَ بها على ألسِنَةِ ملائِكَةٍ قد ثبتَت وكلُّ تعدٍّ ومعصيةٍ نالَ جزاءً عدلاً* فكيفَ نُفلِتُ نحنُ إنْ أهملنا خلاصًا عظيمًا كهذا قد نُطِقَ بهِ على لسانِ الربِّ ثمَّ ثبَّتَهُ لنا الذينَ سَمِعوهُ.

الأيقونة: ما يرى وما لا يرى

لقد تمسّكت الكنيسة المقدسة بالأيقونة منذ القديم، وهي دافعت عنها حتى الدم أحياناً، لأنها رأت فيها كشفاً إلهياً مستمراً لتدابير الخلاص وليس مجرد نمط هندسي أو فني تزييني. الكنيسة حمَت إكرام الأيقونة بالتفاسير العقيدية والكتابية لأن الأيقونة في ابعادها الإيمانية تسخّر الصورة واللون المنظورين لتجليات الإله غير المنظور. المسيح خلّص البشر من عبادة الأصنام لا لأنه جاء يحطمها أو يلغي وجودها بل لأنه جاء كاشفاً للإنسان صورة الله الإنسانية. ولأن الطبيعتين في المسيح متحدتان بلا اختلاط ولا إمكانية انفصال، وبناءً على قول السيد نفسه «من رآني فقد رأى الآب»، علّم آباء المجمع المسكوني السابع أن ناسوت المسيح هو الصورة المنظورة للاهوته. الأيقونة المقدسة تحكي ما لسنا نراه.

خاصية الأيقونة إذاً تكمن في قدرتها على تجسيد التجليات الإلهية، لا مجرد الرمز إليها، وفي كنيستنا شاعت تسمية الأيقونة بنافذة السماء على الأرض، وفي التسمية تعبير عميق. الأيقونة تخاطب العين الروحية في الإنسان، بصيرته، عبر العين البشرية، لتعطيه أن يتأمل تلك «الأجساد الروحية» التي عبّر عنها القديس بولس مراراً. التعابير الوجهية أو الانفعالات أو الحركات الدرامية، التي هي أساساً من قوائم الفن التصويري، لا مكان لها البتة في الأيقونة. أيقونة المنديل الشريف، التي لم تصنعها يد بشرية، هي المصدر للأيقونة المقدسة عموماً في كنيستنا. المنديل الذي يحمل صورة وجه الرب يسوع، ليس رسماً Portrait لوجه السيد بل هو أيقونة حضوره، ولعل التمييز يكمن هنا. القديسون الشهداء، وإن كنا نرى في أيقونات بعضهم تفاصيل عذاباتهم، لا تحمل وجوههم سمات الألم أو الأنين. ملامح وجه الناسك في الأيقونة تحكي جهاداته وفي عينيه صفاء الملائكة. الأيقونة لا تصوّر الشخص أو الحدث في التاريخ، بتفاصيل وتسلسل أحداثه، بل على أساس القصد الإلهي فيه وعبره.

الفن العالمي، بمختلف مدارسه، يستند على القواعد البصرية للعين البشرية ويرسم الأبعاد في لوحاته متآلفة مع ما اعتادت العين أن تراه. إتقان هندسة الخطوط والألوان والظلال، يسهل للعين هذا التآلف إذ هو

العدد ٢٠٠٥/١٣
الأحد ٢٧ آذار
الأحد الثاني من الصوم
أحد غريغوريوس بالاماس
أمنا البارة الشهيدة مطرونة
التي في تسالونيكي
اللحن الثاني
إنجيل السَحَر العاشر

الإنجيل

(مرقس ٢:١–١٢)

في ذلك الزمان دخلَ يسوعُ كَفَرْناحومَ وسُمع أنَّهُ في بيتٍ* فللوقت اجتمعَ كثيرون حتَّى إنَّهُ لم يَعُدْ موضعٌ ولا ما حولَ الباب يَسَعُ وكان يخاطبهم بالكلمة* فأتوا إليهِ بمخلَّعٍ يحمِلهُ أربعةٌ* وإذ لم يقدروا أنْ يقتربوا إليهِ لسببِ الجمع كشفوا السقفَ حيث كان. وبعد ما نَقَبوهُ دلَّوا السريرَ الذي كان المخلَّعُ مضطجعًا عليهِ* فلمَّا رأى يسوعُ إيمانَهم قال للمخلَّعِ يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك* وكان قومٌ مِنَ الكتبةِ جالسين هناك يفكّرون في قلبِهِمْ ما بالُ هذا يتكلَّم هكذا بالتجديف. مَن يقدِر أنْ يغفِرَ الخطايا إلا الله وَحْدَهُ* فللوقت علمَ يسوعُ بروحهِ أنَّهم يفكّرون هكذا في أنفسهم فقال لهم لماذا تفكّرون بهذا في قلوبكم* ما الأيسرُ أنْ يُقالَ مغفورةٌ لك خطاياك أم أنْ يُقالَ قُمْ واحمِلْ سريرَك وامش* ولكنْ لكي تعلَموا أنَّ ابنَ البشر لهُ سلطانٌ على الأرض أن يغفِرَ الخطايا (قال للمخلَّع) لك أقول قُمْ واحمِلْ سريرَك واذهبْ إلى بيتك* فقام للوقتِ وحملَ

يخلق في اللوحة أعماقاً وأبعاداً وهمية تحقق واقعية اللوحة. الفن المقدس لا يجهل هذه التقنيات، بل يتجاوزها كلياً لأنه أصلاً يتجاوز الحقيقة المادية كما تراها العين البشرية إلى حقيقة روحية تراها العين الروحية. في الأيقونة، الرسم المنظوري perspective يكون معكوساً، وكأن الشخص المصوَّر فيها هو الآتي إليك. حتى في الأيقونات التي تصوّر عدة أشخاص، أو حدثاً من أحداث الله الخلاصية كالميلاد والظهور الإلهي والعنصرة أو أمثال الإنجيل كالابن الشاطر أو السامري الصالح، نرى الأشخاص كلهم على مسطح واحد. القواعد البصرية التي تحكم الأعماق والأبعاد المرئية ملغاة من الأيقونة كلياً، لأن غاية الأيقونة أن تُخرج الناظر إليها من كل أبعاد العالم المادي المنظور، إلى العالم السماوي غير المنظور. الخلفية الذهبية، والتي ترمز إلى المجد الإلهي، تشكل البعد الثالث الذي يضفي على الأيقونة حياتها لا وفقاً لما تألفه العين البشرية بل لما يتحسسه قلب المؤمن. في ملامح الوجه الأيقوني وتعابيره ملامح الجسد «الروحاني»، إذا جاز التعبير.العينان الواسعتان ونظرتهما الثابتة الصافية تنظران إلى ما وراء المنظور. الشفتان الدقيقتان تشيران إلى التحرّر من الشهوانية والأهواء والطعام المادي والكلام غير المجدي. الشفتان في الأيقونة هما للتسبيح وتذوّق القدسات وإعطاء القبلة السلامية المقدسة. الجبين العريض يشير إلى انفتاح الفكر على السماويات، والسحنة الداكنة في الوجه تلغي عنه كل مادية وشهوانية. تقنية الظلال لا وجود لها في الأيقونة، لأن الزمان الذي تحكيه الأيقونة لا تغيب الشمس فيه. إنه زمان سابح في النور.

الصلاة الربانية

تُطلق عبارة الصلاة الربانية على الصلاة «أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك...» لأنها الصلاة الوحيدة التي علّمها الرب يسوع لتلاميذه حين شاء تعليمهم كيفية الصلاة (متى ٦:٩–١٣، لو ١١:٢–٤). وقد وصفها أحد الكتّاب المسيحيين بأنها الصلاة المسيحية في أسمى معانيها، وأنها تُلخص الديانة المسيحية، وأنها تتضمن الطلبات والتوسلات والشكر وكل غايات الصلاة الزمنية والروحية، الإلهية والإنسانية، مرتّبة بترتيب مناسب جميل.

ترد الصلاة الربانية في إنجيل متى في سياق العظة على الجبل حيث يعلّم الرب تلاميذه والشعب ويعطيهم الوصايا الجديدة. وقد أتت هذه الصلاة مباشرة بعد دعوة الرب لهم أن لا يكونوا كالمرائين الذين يصلّون في المجامع لكي يظهروا للناس (متى ٦:٥). وكأننا بالرب يسوع يُصحّح عبر هذه الصلاة ممارسات الصلاة الرديئة لدى الشعب. كما أنه أراد أن تكون صلاتهم مختلفة عن صلاة الوثنيين الذين «يظنون أنَّهُ بكثرةِ كلامِهِمْ يُستجابُ لهُمْ» (متى ٦:٧). أمَّا لدى الإنجيلي لوقا فإن الرب يسوع يعطي هذه الصلاة بناءً على طلب أحد تلاميذه: «يا ربُّ علِّمنا أنْ نصلّي كما علَّمَ يوحنا أيضًا تلاميذَهُ» (١١:١). إنها صلاة الصلوات، وهي مثال صلواتنا ونموذج لروحها وأسلوبها. إنها الصلاة التي ترافق الإنسان من المهد إلى اللحد، وإليها يعود حين تعجز الكلمات عن شكر الله وطلب رحمته وإحساناته. نذكر هنا أن هناك اختلافات بسيطة في الشكل بين نصي متى ولوقا. في الأول هناك سبع طلبات وفي الثاني خمسة فقط. الكنيسة وفي مختلف اصقاع

سريرَهُ وخرجَ أمامَ الجميعِ حتَّى دَهِشَ كلُّهم ومجَّدوا اللهَ قائلين ما رأَينا مثلَ هذا قطُّ.

تأمل

«لما رأى يسوع إيمانهم قال للمخلع: يا بني مغفورة لك خطاياك».

إن الطبيب قبل معالجته المريض يستأصل أسباب المرض. هكذا فعل سيدنا يسوع المسيح، فإنه استأصل أسباب الشر في المخلَّع. إن الخطيئة هي سبب بل أصل كل شر. إنها توهن أجسادنا التي يتسرب المرض إليها تدريجيًا.

«في البدء»، في الأيام الأولى للخليقة، دخل المرض أجساد البشر بواسطة الخطيئة. ثم بعد أن قتل قايين أخاه هابيل وفعل تلك الجريمة الكبرى، ضعف جسده (تك ٤:١٤) لأن الاضطراب ضعف. وليس عبثًا أن وبخ القديس بولس الكورنثيين عن خطاياهم إذ قال: «ولذلك كثر فيكم المرض والسقام ورقد كثيرون» (١ كو ١١:٣٠).

الخطيئة حوّلت الملاك اللامع إلى شيطان رجيم وأسقطته من السماء. الخطيئة طردت آدم من الفردوس وسببت اللعنة والموت للجنس البشري. خطايا الأجيال الأولى

الكون ومنذ القديم اعتمدت في ليتورجيتها وصلواتها النص الوارد في إنجيل متى مع المجدلة: «لأن لك الملك والقدرة والمجد».

قلنا إن الصلاة الربانية نموذج لصلواتنا. فهي تتضمن الدعاء أو الاعتراف بسلطان الآب وربوبيته، ثم الطلبات وبعدها التمجيد. الدعاء ينبّهنا إلى أننا أبناء الله (بيسوع المسيح) وإخوة لبعضنا البعض، وأن السماء هي موطننا الحقيقي الذي يجب أن نسعى إليه في الصلاة. وتنقسم الطلبات إلى قسمين، ثلاث منها تختص باسم الله وملكوته ومشيئته. هذه الطلبات هي على المستوى الاسكاتولوجي، أي المتعلق بالآخرة، وتعبّر عن رغبة المسيحي في أن يرى مجيء ملكوت الله.وثلاث طلبات أخرى تتعلق باحتياجات الإنسان الأرضية والروحية حتى ينجو من الشرير. أما التمجيد «لأن لك الملك والقدرة والمجد إلى الأبد آمين» فهي خاتمة جميلة ومناسبة للصلاة الربانية، فيها نقرّ بأن الله وحده السيد وله وحده السلطان على كل شيء.

تبتدئ الصلاة الربانية بكلمة «أبانا». وهذا الأمر هو حدث مهم بحد ذاته. فشعب العهد القديم لم يكن يستعمل هذه العبارة عند الصلاة إلى الله. حتى إنهم كانوا يخافون أن يلفظوا كلمة الله أثناء قراءتهم الكتاب المقدس، وكانوا يستبدلونها بكلمة «السيد». فالله بالنسبة لهم هو الساكن في الأعالي، في السموات فوق، ولا يجوز إنزاله إلى مستوى البشر. ما فعله الرب يسوع أنه حطم حاجز الخوف الذي بناه البشر بينهم وبين الله ونادى الله أبانا. لقد أدخل يسوع مفهومًا جديدًا للعلاقة بين الله والبشر هي علاقة البنوة، علاقة أب وأبناء.

إضافة إلى ذلك فإن يسوع استعمل اللفظة الآرامية ABBA (أبّا). وقد أبقى الإنجيلي متى هذه اللفظة في أصلها الآرامي رغم أنه كتب إنجيله باليونانية، ذلك لأنه في كل لغات العالم هناك كلمات لها مفهومها الخاص في أصلها، فإن كلمة أبّا لها مفهومها الخاص الآرامي. هي الكلمة التي يستعملها الأطفال في مناداة آبائهم، وتعني أن الطفل هو في اتكال كلّي على أبيه في تأمين كافة حاجاته الجسدية والروحية، كما أن مشيئته وإرادته هي من مشيئة أبيه وإرادته. هذا المفهوم يؤكده ما ورد في إنجيل مرقس عندما كان يسوع يصلّي في الجسمانية «وابتدأ يَدْهَشُ ويكتَئِبُ ... وكان يصلّي لكَيْ تَعْبُرَ عنهُ الساعةُ إن أمْكَنَ. وقالَ يا أَبَا الآب كلُّ شيءٍ مُستطاعٌ لكَ. فأجِزْ عنّي هذهِ الكأسَ. ولكن ليكُنْ لا ما أُريدُ أنا بل ما تُريدُ أنتَ» (مر ١٤: ٣٣-٣٦). لم يهتم لمشيئته هو بل أراد أن يطبّق مشيئة أبيه، وكأنه طفل صغير يثق بحكمة أبيه ودرايته، وأنه سوف يهتم به بالتأكيد ولن يتركه. وهذا ما حصل فعلاً كما يؤكد الرسول بولس، إذ أن الرب يسوع «أطاعَ حتى الموت موت الصليبِ. لذلك رَفَّعَهُ الله أيضًا وأعطاهُ اسمًا فوقَ كلِّ اسمٍ لكي تجثوَ باسمِ يسوعَ كلُّ رُكبةٍ» (في ٢: ٨-١٠). إذًا، ما يريد أن يعلمنا إياه الرب يسوع في هذه الصلاة هو أننا كلما وقفنا أمام الله للصلاة علينا أن نقف أمامه وكأننا أطفال صغار ننادي أبانا. نقول له أننا متكلون عليك في كل شيء ومشيئتك هي مشيئتنا، وهو لا بدّ أن يستجيب لنا.

كلمة أبانا هي المحور الذي تدور حوله كافة الطلبات الواردة في الصلاة الربانية. فالملكوت الذي نطلبه هو الملكوت الذي أتى به الرب يسوع بعمله الخلاصي، هذا الملكوت حيث مشيئة الله هي التي تتم. إنها

سبّبت الطوفان الذي أهلك جموعاً لا تحصى. الخطايا أنزلت ناراً من السماء فأحرقت سادوم وعمورة والمدن المجاورة. الخطايا سبّبت الضربات للمصريين وأهلكت فرعون وجنوده في البحر وأهلكت الإسرائيليين الذين أخرجهم الله من أرض مصر في البرية وبسببها لم يدخلوا أرض الميعاد. الخطيئة لا ترحم أبداً. إن خطايا البشر سمّرت ابن الله البريء من كل خطيئة على الصليب، فهل ترحم أحداً؟

إن الخاطئ الذي حصل على رحمة الله يذكر خطاياه لتمجيد الخالق الذي عفا عنه. فكلما تلطف الخالق بالعفو عن الخاطئ تظهر رحمته جلية ويزداد تمجيده كالطبيب المشكور على حذاقته في معالجة المرض العضال.

إن شر الخطيئة عظيم جداً حتى ان الإنسان لا يقدر أن يتخلّص منه إلا برحمة السيد. خطيئة آدم كانت عظيمة جداً حتى ان دموع الآباء لم تقدر أن تفديها ولا دماء الأنبياء الأبرياء قدرت أن تكفّر عنها. لذلك اقتضت الحال تنازل ابن الله من سمائه وتجسده وتألمه وافتداءه الخطيئة البشرية بدمائه. ما العمل إذاً مع خطايانا؟ بماذا نفتديها عند الله؟ لا نحصل على رحمته إلا إذا فارقنا الخطيئة.

القديس غريغوريوس بالاماس

المشيئة الإلهية التي يجب أن نسعى لتطبيقها «كما في السماء كذلك على الأرض». وكما أن الأب يؤمن الخبز لأولاده نطلب منه الخبز الجوهري، المادي والروحي، كذلك نسأله أن يحمينا من هجمات الشرير وتجاربه كما يحمي الأب أولاده من كل شر متربّص بهم.

ما يجب أن نشدد عليه هو أننا نستطيع مناداة الله «أبانا» لأن يسوع جعلنا إخوة له على الصليب وبعد القيامة عندما لاقى يسوع مريم المجدلية ومريم الأخرى وقال لهما «لا تخافا. إذهبا قولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل، وهناك يرونني» (متى ٢٨:١٠). ومنحنا نعمة البنوة لله. لذا فإننا نجسر أن ننادي الله «أبانا» بيسوع المسيح ابن الله فقط. هو من يرفع صلواتنا إلى الله وعبره ننال النِعَم.

أخيراً، القديس يوحنا الذهبي الفم يعلّق على استعمال يسوع لفظة «أبانا» بدل «أبي» فيقول: «يعلّمنا أن نجعل صلاتنا مشتركة، لمصلحة إخوتنا أيضًا. إذ لا يقول «أبي الذي في السموات» إنما «أبانا» مقدّمًا تضرعاته من أجل الجسد المشترك، غير ناظر قطّ إلى مصلحته الخاصة، بل إلى مصلحة قريبه في كل مكان. وبهذا فإنه يُقصي الكراهية للحال، ويقمع الكبرياء ويطرد الحسد، ويورد أمّ كل الصالحات أيضًا ألا وهي المحبة، ويقضي على تفاوت الأمور البشرية، ويُظهر مقدار ما تصل إليه المساواة بين الملك والفقير. إن الجميع منسوجون معًا في الأعالي، ولا يملك أحد البتة أكثر من الآخر؛فلا الغني أكثر من الفقير، ولا السيد أكثر من الخادم، ولا الفيلسوف أكثر من البربري، ولا البارع أكثر من الجاهل، إذ أعطى الله الجميع سموًّا واحدًا، لأنه تنازل ليُدعى أبًا للجميع على حدٍّ سواء».

الصلاة الدائمة

لا يفكرنَّ أي واحد، يا زملائي المسيحيين، أن الرهبان الكهنة فقط، دون العلمانيين، هم في حاجة إلى صلاة بلا توقف. لا، لا، يجب أن يسكن كل مسيحي بدون إستثناء على الدوام في الصلاة.

عندما أوصانا الرسول أن «صلّوا بلا انقطاع» (تسا ٥:١٧)، فقد قصد بأنه يجب علينا أن نصلّي داخلياً بذهننا: وهذا شيء يمكننا فعله دائماً. لأنه عندما ننشغل في عمل يدوي، وعندما نسير أو نجلس، عندما نأكل أو نشرب،يمكننا الصلاة دائماً داخلياً،وممارسة صلاة الذهن، الصلاة الحقيقية، مرضين الله.

لنعمل بجسدنا ونصلّي بنفسنا. لندعْ إنساننا الخارجي يتمم العمل الجسدي ولندعْ إنساننا الداخلي يتكرس كلياً وبشكل تام لخدمة الله، ولا يفتر أبداً في العمل الروحي للصلاة الداخلية. وهذا أيضاً ما ينصح به يسوع الإله – الإنسان، عندما يقول في الإنجيل المقدس: «وأما أنت فمتى صلّيت فادخل إلى مخدعك واغلق بابك وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء» (متى ٦:٦). إن مخدع النفس هو الجسد، والأبواب هي الحواس الجسدية الخمس. فالنفس تدخل إلى مخدعها عندما لا يهيم الذهن هنا وهناك في الأمور العالمية. إن حواسنا مغلقة وتبقى كذلك، عندما لا نسمح لها بالتعلق بالأمور الخارجية والمنظورة؛ وبهذه الطريقة يبقى ذهننا حراً من كل إرتباط عالمي، وبصلاته السرّية، الداخلية يتحد مع الله أبينا.

القديس غريغوريوس بالاماس

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb